الفصل الثاني

المحسنات اللفظية

أولا : السجع

علاقة السجع بالتأثير النفسي :

يكاد يجمع دارسو الأدب على أن موسيقي النفس تتوقف على موسيقى اللفظ ، فكلما تآلفت الكلمات وتناسقت الأصوات اشتد تأثيرها في العقل ، وحسن وقعها في النفس ؛ لأن ثَمَّ صلة وثيقة بين الأصوات والجهاز العصبي ، حيث يتحول ما ينبعث من نغم ورنات إلى مؤثرات في الأوتار العصبية للإنسان فتوقظ العواطف وتثير كامن الانفعال ، وتبعث ألوانا من الذكريات وأفنانا من الأحاسيس والتموجات .

وليس كالسجع مؤثر فإن توالى المقاطع ، وتناسب الفقر ، وحسن الإيقاع وتتابع الأصوات بنظام ، واتساق النظم ، وتوارد الفواصل على حرف واحد مع الاعتدال في مقاطع الكلام كل ذلك يجعل الكلام خفيفا على اللسان ، مقبولا في الأذن ، موافقا لحركات النفس ، مطابقا لطبيعة الفكرة ، أو الصورة أو العاطفة التي يعبر عنها الأديب ، وهذا ما يعبر عنه بالسلاسة والعذوبة والطلاوة[1] على أن ذلك مرجعه إلى الأذن المرهفة ، والفطرة الصافية ، والذوق الفني السليم ، ففي هذه الملكات وضح البارئ جلا وعلا سر الفن كله ، وفي نبي الإسلام ﷺ

---

(١) انظر في هذا : دراسات في علم النفس الأدبي : حامد عبد القادر ص ٦٦ ، ٨٩ ، ٩٣ ، دفاع عن البلاغة ، أحمد حسن الزيات ص ١٢٠ -١٢٣ ، والأصول الفنية للأدب عبد الحميد حسن ص ٢٠ ، والأسلوب : أحمد الشايب ص ٦٨ ، وإعجاز القرآن ، الرافعي ص ٢٤٤ .

كملت هذه المواهب فكان الأبلغ في دنيا الناس ، وكان أسلوبه الأوقع في عالم الأساليب .

موازنة علمية :

سبق البلاغيون إلى إظهار الفارق بين سجع الكهان الذي يقوم على التكلف وبين سجع النبوة الذي هو طبع وفطرة ، ثم هم لا يعقدون موازنات ، ولا يوازنون الأساليب إلا في الفينة بعد الفينة ، وقد ارتأيت أن أثبت هنا جملة من الأحاديث النبوية بها سجع ، ومجموعة مما ورد من سجع الكهان لتتم الموازنة بصدق على النهج العلمي :

١- عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، سبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض»[١]

٢- عن عائشة رضي الله عنها قالت : افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة فتحسست فإذا هو راكع أو ساجد يقول «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك»[٢]

٣- عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ «تعوذوا بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء»[٣]

٤- عن عبد الله بن الشخير ﷺ أنه قال : أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ : «ألهاكم التكاثر ، يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت»[٤].

---

(١) رياض الصالحين ص ٢٠٨
(٢) المرجع السابق ص ٢١٠
(٣) المرجع السابق ص ٢٩٦
(٤) المرجع السابق ص ٩٣

وهذه نماذج من سجع الكهان :

١- سجع الكاهنة «زبراء» مع بني رئام : قالت تحذرهم من أعدائهم «يا ثمر الأكباد ، وأنداد الأولاد ، وشجا الحساد ، هذه زبراء تخبركم عن أنباء قبل انحسار الظلماء بالمؤيد الشنعاء ، فاسمعوا ما تقول ، قالوا وما تقولين يا زبراء قالت : واللوح الخافق ، والليل الغامق ، والصباح الشارق والنجم الطارق والمزن الوادق إن شجر الوادى ليأدو قتلا ، ويحرق أنيابًا عصلا ، وإن صخر الطود لينذر شكلا ، لا تجدون عنه محلا[١].

وروى الجاحظ من قول عزى سلمة «والأرض والسماء والعقاب والصقعاء وواقعة ببلقاء لقد نقد المجد بني العشراء للمجد والسناء»[٢]

روى ابن الأثير قول سطيح «عبد المسيح جاء إلى سطيح ، وهو موف على الضريح لرؤيا المؤذن وارتجاس الإيوان»[٣]

وجاء في الأغاني أن عوف بن ربيعة كاهن بني أسد قال لقومه يتكهن بمقتل الملك حجر بن الحارث أبي امرئ القيس الشاعر «من الملك الأصهب ، الغلاب غير المغلب في الإبل كأنها السربرب ، لا يعلق رأسه الصخب ، هذا دمه يتغب وهذا غدا أول من يسلب»[٤].

ونقدم قبل الموازنة ملحظا ، ذلك أن نزاعًا عنيفًا نشب بين من ينفون سجع الكهان أو النثر الفني الجاهلي بصفة عامة ، وبين من ينفونه مدعين ضياعه ، ولا بأس من اتباع رأي كثير من المحدثين في إثبات بعضه ، وإثبات أن المنتحل منه جاء على غرار الأصل ، ذلك أن الاهتمام الديني بالكهنة ونفورهم إليهم في مشكلاتهم جعلتهم يعون كلامهم ، وطريقة تأليفهم ، على أن لجوء الكهان إلى السجع بنغمة الموسيقى قد قاوم عوامل الضياع لقربه من الشعر

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١٨٦/١
(٢) المرجع السابق ١٨٣/٦
(٣) انظر : المثل السائر ٢٧٤/١ ، ٢٧٥
(٤) الأغانى للأصفهاني ٨٤/٩

سهولة في الحفظ ، ولصوقًا ـ بالذهن[1] ومهما يكن فإن دراسة ماأثبتناه من نصوص جاهلية تطلعنا على ما يلي :

١- لجوء الكهان إلى الإقسام بالمظاهر الكونية والمخلوقات الطبيعية دون تناسق في المقسم به كالعقاب والصقعاء ، واللوح الخافق والليل الغامق قصدًا إلى التمويه والتأثير والغموض .

٢- الإكثار من الكلمات الغريبة والحوشية لتوفير جو من الغموض والخفاء ، تضل فيه المعاني تحت أكداس من الرموز والإبهام ، فيكثر الاحتمال والتأويل لتبقى للكهان مهمتهم كمتصلين بما وراء الطبيعة .

٣- القصد إلى السجع قصدا مع التكلف البغيض والتعسف الكريه مع استكراه المعنى ، والتنافر بين الجمل ، وكثرة الإشارات ، فأي صلة بين السماء والأرض والعقاب والصقعاء ، وواقعة ببلقاء ، وأي علاقة بين من هو كالسربرب وبين صخب الرأس ، مع استكراه القول ، والطول الممل حول موضوعات جد تافهة كولد البقرة ورأس الجرادة ، فالسجع هنا ـ حقيقة ـ لم يساعد الأساليب على تقديم أفكار طبيبة أو معان عميقة ، وأعتقد أن مثل هذا السجع كان يروى ـ كالنوادر ـ تزجية فراغ ، وتسلية وقت ، فلا يأوى إلى ظل من الأدب الراقي .

فإذا ما قرأنا الأحاديث النبوية السابقة وهي مجموعة فسنجد هذه الخصائص :

١- الوضوح التام في الألفاظ ، والوضوح التام في المعاني ، فالمعنى هو الذي يختار لفظًا يلبسه .

---

(١) راجع فى هذا : تطور الأساليب النثرية ، أنيس القدسى ١/١١-١٣ ، الخطابة محمد أبو زهرة ٢/٢٠ ، الخطابة فى صدر الإسلام : محمد طاهر درويش ١/٧٦ ، ٧٧ صور للبديع ، على الجندي ١/٤٦ ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، شوقي ضيف ص ٣٢ ، ٣٣ .

٢- معالجة فكرة كاملة في كل حديث ، فالطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ؛ إنه الطهر الظاهري والباطني لتمجيد الله في علاه .

٣- إحاطة الألفاظ بكل جوانب المعنى : «ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أوتصدقت فأمضيت» فكل ما في الدنيا من متاع موزع بين المظهر والزخرف أو المتعة الزائلة ولا يبقى إلا العمل الصالح .

والتعوذ بالله من شرور الحياة المقدرة من بلاء يجهد أو شقاء يتعس ، أو قضاء يمحق ، وهذه إحاطة بما يصيب المرء من مصائب في دنياه ويترتب عليه شماتة الأعداء .

٤- التعبير عن حقائق كاملة وابتهالات صادقة أو تعوذات خائفة أو مناجاة ذائبة فيها هذه الأحاسيس الراقية والمشاعر الصادقة .

٥- الانسياب في الألفاظ دون حائل من غرابة أو غموض من إشراق المعنى وتسلسله نفسيا ومنطقيا ، فالمعاني مرتبة في النفس قبل صدورها منسقة الأسلوب بعد ظهورها مع الإطار الموسيقى الساجع ، ومن هنا كانت سجعات الحديث مطبوعة فطرية ، وكان اللفظ والمعنى كحدي الشفرة يقومان معا بمهمة مشتركة ، وبهذا نرد رأيا للدكتور زكي مبارك حين يقول وفي الأحاديث النبوية سجع مقصود خلافا لما ظن المسيو ما سينيون ، ومن أمثلته : «أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»[1]

فهل يمكن تغيير لفظ بآخر دون تغيير في المعنى أو حذف كلمة دون نقص في الفكرة بل إن المتأمل ليجد هذا التسلسل المعجز بين الفقر ، فهناك علاقة الإنسان بأخيه تتمثل في السلام وهو قول طيب ينشر المحبة والأمان ولا يكلف رهقا ، ثم إطعام الطعام أعم من إكرام الضيف أو إطعام الفقير ، وهو أدخل من الأول في العطاء وحمل النفس عليه ، ثم علاقة المؤمن بربه في صلاة خاصة في وقت خاص في حال خاصة بالليل في جوفه والنيام كثيرون ، ونلاحظ الترتيب

---

(١) النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه ، دكتور عبد الحكيم بلبع ١/٧٥

التصاعدي هنا كان الجزاء طيبا والحديث كله بين إطارين من السلام بدءًا في الدنيا ونهاية في الأخرى ، وفي الأسلوب على السواء ومن يتدبر الحديث يجد فيه الكثير ، على أن العجيب في رأي زكي مبارك أنه مناقض لقوله «السجع من مميزات البلاغة الفطرية»[1] كأنه يناقض نفسه بطريق غير مباشر .

ظاهرة :

لم يتعمد الحديث السجع وإنما جاء عفو الخاطر ووحي البديهة ، ثم إن الأحاديث غير المسجوعة تفوق كثيرا الأحاديث المسجوعة ، لكن ما وجه النظر هو أن أكثر ما جاء في البيان النبوي مسجوعا الابتهالات والدعوات والتضرعات والاستعاذات وهذا ما جعلني أفكر أن البيان النبوي يرسم للإنسان طريقه في الحياة وإلى الله هاديا ومرشدا ، هكذا كان النبي الكريم يخاطب الناس ويعلمهم ، لكن هناك لحظات كان يناجي ربه وحده ـ ضارعًا ذائبًا ينسى هذا الكون وما فيه ، فكان هنا حالة استغراق إنسانية خاصة فيها فوران عاطفي واهتزاز وجداني ، لا جرم أن الألفاظ تنبع وفيها هذا الإشعاع الروحي . منغومة مسجوعة صافية فيها إيقاع خاص ، وهذا لا ينفي تعليم النبي أمته ولكن في هذه اللحظات كان وحده ناسيا ما عدا الله لاجئا إليه وحده ، مستحضرًا جلال ربه العظيم ، ولا ينفي ثانيا أن يجيء السجع في المواعظ لتحفظ وفي غير الابتهالات .

وأن تأتي ابتهالات غير مسجوعة قليلا ، فلا تحكم في الطبع والفطرة وإنما كثرة السجع فيما ذكرت هي الظاهرة التي أثارتني .

العلماء والسجع :

لما في السجع الكهنوتي من إيهام وخطأ في الأحكام وتمويه على العقول ورد عن النبي ﷺ ما يوهم إنكار السجع فقد أمر النبي ﷺ في الجنين بغرة عبد أو أمة ، فقال من حكم عليه «أأدى من لا شرب ولا أكل ولا نطق

---

(١) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ١/٧٥

ولا استهل»، ومثل ذلك بطل فقال رسول الله ﷺ : «أسجعا كسجع الكهان»، أي أتتبع سجعا كسجع الكهان ؟»[1]. وقد ورد الحديث في معظم كتب البلاغة - وأبادر هنا بتسجيل هذه الملاحظة فقد قدم الرجل الشراب على الأكل ، والنطق على الاستهلال وهذا قلب للترتيب العقلي والنفسي ، من هنا كان الأسلوب شاذًّا والسجع متكلفا ، وهذا ما نفر منه ﷺ ، وعلى ضوء ما قررت نفضى إلى موقف العلماء من السجع وقد أثارهم هذا الحديث ، ولسنا بحاجة إلى الخوض في موضوع قتل بحثًا ونكتفي بالإشارة الدالة ، والواقع أن قلة من العلماء منهم أسامة بن منقذ ، والباقلاني ، والرماني عابوا السجع ، وأولوا ما جاء في القرآن والسنة وآثار العرب بأسماء غير السجع ، أما جمهرة البلاغيين فقد أقروا السجع كنمط في الكلام ، واشترطوا لقبوله عدم تكلفه ، واقتضاء المقام له[2] بل إن المحدثين حللوه موسيقيا وربطوا بينه وبين النفس الإنسانية في تأثرها بالإيقاع والنغم ، وبينوا أثره في الكلام وإمتاع العاطفة ، وإذن فيحق لنا أن نرد رأيا للدكتور شوقى ضيف حول سجع النبوة حين قال «ومن المؤكد أنه (عليه الصلاة والسلام) لم يستخدم السجع في خطابته ، بل كان ينفر بسبب استخدام الكهان له في الجاهلية ... ولذلك صد عنه كما صد عنه خلفاؤه[3].

ونكتفي بالإحالة على ما أوردته من أحاديث مجموعة ، وعلى أى كتاب مختصر كرياض الصالحين ، لمحاولة حصر ما ورد مسجوعا ، ولا بأس هنا أيضا أن نثبت هذا القول لابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة بعد أن أورد

---

(١) انظر : المثل السائر ٢٧٥/١

(٢) انظر : إعجاز القرآن للباقلاني ص ٦٠ ، النكت في إعجاز القرآن : الرماني ص ٧٥ من (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) والصناعتين ص ٢٥١ ، أسرار البلاغة ص ٦ ، وسر الفصاحة ص ١٦٤ ، والمثل السائر ٢٧٥/١ ، شرح نهج البلاغة ١٢٩/١ ، وتحرير التحبير ٣٦٥/٣ والطراز ٢٠/٣ ، والبرهان للزركشي ٥٩/١ ، ٦٠ .

(٣) انظر : الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٥٧

خطبة حجة الوداع[1]، قال «فأما خطبة رسول الله ﷺ وآله هذه فإنها وإن لم تكن ذات سجع فإن أكثر خطبه مسجوع كقوله «إن مع العز ذلا ، وإن مع الحياة موتا ، وإن مع الدنيا آخرة ، وإن لكل شيء حسابا ، ولكل حسنة ثوابا ، ولكل سيئة عقابا ، إلى آخر الخطبة ثم يقول : فأكثر هذا الكلام مسجوع ، وكذلك خطبه الطوال كلها»[2]

السجع والتوازن :

ونلمح بإيجاز إلى أقسام السجع ، وله تقسيمان ، فهو بين طويل أو قصير ، والثاني أصعب وأوعر ، وإن كان أخف وأطيب وهو بين مرصع ، وهو ما اتفق غالبا وزنا وتقفية ، وتوازن ، وهو ما اتفق في الكلمتين الأخيرتين ، ومطرف وهو ما اختلفت فاصلتاه وزنا ، واتفقتا في الحرف الأخير[3].

وهذه مجموعة من الأحاديث نجري عليها دراستنا :

«المؤمن غر كريم ، والفاجر خب لئيم»[4]

«إن الله كره لكم ثلاثا قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال»[5]

«شر ما في الرجل شح هالع ، وجبن خالع»[6]

والحديث : المؤمن غر كريم ، والفاجر خب لئيم ، والحديث الآخر شر ما في الرجل شح هالع ، وجبن خالع ، نجد اتفاق الفاصلة ، واتفاق الوزن ، مما زاد العبارة أسرًا وخلابة ، ثم إن الأسلوب مقطع تقطيعا صغيرا ، فيه جرس خاص ، وقد جاءت إليه الياء قبل الميم ، والألف قبل العين ، ثانيا ، فأعطى

---

(١) انظر : شرح نهج البلاغة ١/١٢٦ - ١٢٨

(٢) المرجع السابق ١/١٢٨ ، ١٢٩

(٣) انظر : الطراز ٣/٣٠ وعلوم البلاغة للمراغي ص ٣٧٣ .

(٤) التاج الجامع ٥/٤١ (٥) رياض الصالحين ص ١٦

(٦) التاج الجامع ٤/٤٣١

للنفس تموجًا وامتدادا ، فهنا توازن صوتي تضمن في الوقت نفسه ما أطلق عليه المحدثون قانون التساوي بمعنى تساوي الأجزاء ، وقانون التوازي بمعنى توازيها[1].

وهذا الإيقاع الخاص المترتب على النظام الموسيقي بتكرار مجموعة من الأصوات أعطى للأسلوب نسقا معينا ، وإذا كان الصوت ما يهز الانفعال الذي أحاط المعنى بجو مشبع به ، فإننا نلحظ أن الصوت أو اللفظ أخرجه المعنى في صورته بعفوية وفطرة لغوية ، لا تكلف فيها ، فالكريم من صفات المؤمن بلاشك واللؤم من خصال الكافر بلا نزاع ، ثم قد نجد في الحديث النبوي مع السجع أمورا ترجع لحروف الكلمات وأواخرها ، كاعتماد الفاصلة على حرف النون مسبوقا بالألف في قول الرسول الكريم : «كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

فالفواصل هنا قصيرة مختومة بحرف غنه ، وترنم ، وقد تكرر ذلك بشكل محبوب يترجم عن صوت الوجدان الداعي للمقام هنا وهو الحث على ذكر الله وتقديسه . وهذه الظاهرة التي يسميها الأقدمون التوازن : يطلق عليها المحدثون : اتزان الإيقاع[2] والتي صنفوها بين تامة إذا اتحد الاتزان والتقفية كشح هالع وجبن خالع ، أوغير تامة إذا عدمت التقفية كما في الحديث : «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك في أهل القبور».

ولدور ظاهرة التوازن في تقوية المعنى عن طريق النغم قد تقتضي تعديلاً في التعبير عن الصورة القياسية للكلمة كقول النبي ﷺ : «خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة»، قال ابن سنان الخفاجي : قال : مأمورة لأجل المناسبة ،

---

(١) انظر : الأسس الجمالية في النقد العربي دكتور عز الدين إسماعيل ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ط . ثانية دار الفكر العربي

(٢) انظر : التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ص ٨٩ .

والمستعمل موفرة أي كثيرة النتاج كما قرئ ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ ، أي كثرنا .

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كان يعوذ الحسن والحسين عليهما السلام : «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة» فقال لامة ولم يقل ملمة ، وهي القياس مكان المناسبة اللفظية التامة ، ومثله قوله عليه الصلاة والسلام «ارجعن مأزورات غير مأجورات» ، والمستعمل موزورات فجاء به مهموزًا لأجل المناسبة . وهذا كما يقول ابن أبي الإصبع : من الفصاحة العجيبة .[1]

ويدل على أن هذا التعديل اللفظي طبعي لتوفير الدقة الكاملة للأسلوب والإيقاع المعبر دلالة على تمام البلاغة ، إنه حدث في موقفين لا يشجعان على طلب الزخرفة ، فالأول : رقيا طفلين حبيبين إلى قلب الرسول الرحيم يخاف عليهما من كل سوء ، وهذا موقف صدق وصراحة ، والثاني : انتهار نسوة أخرجهن الحزن على فقيد كريم لاطمات باكيات خارجات ، من جزع . . ، على تقاليد الإسلام فهو موقف جد وتعليم وزجر ، كل هذا دال على أن هذا التعديل بل ظاهرة السجع من أساسها فطرة لغوية ، ومنحى أسلوبي ، وبلاغة معنوية لا ترف لفظي أو تحسين أسلوبي ـ وبهذا نرد على الأستاذ العقاد والدكتور عبد الحكيم بلبع وقبلهما الدكتور زكي مبارك في جعلهم السجع في الحديث حلية لطيفة ، أو ترفا نفسيا أو زينة تقصد ولكنها لا تلتزم[2].

فما كان رسول الله ميالا بطبعه إلى حلي أو تزيين في الأسلوب أو ترف لفظي وهو الذي نهى عن التكلف الممل لاسيما موقفان شعوريان صادقان

---

(١) انظر : سر الفصاحة ص ١٦٩ ، والصناعتين ص ٢٥٢ ، المثل السائر ١٧٤/١ وتحرير التحبير ٣٦٧/٣

(٢) انظر : النثر الفني ، زكي مبارك ١/ ٧٩ ، عبقرية محمد للعقاد ص ٧٧ والنثر الفنى ، عبد الحكيم بلبع ص ١٠٨ .

لا تقبل فيهما زخرفة أو تزيين ، يقول الأستاذ أحمد الشايب عن المحسنات منكرًا على من يدعي أنها حلي :

«والحق أنها تدخل الأساليب الأدبية حين تدعوها طبيعة المعاني لتوثيقها أو إيضاحها»[1]

وبهذا نعود إلى ما بدأنا به الفصل من أن السجع كأي لون بلاغي في بيان النبوة يتطلبه المعنى ويقتضيه المقام وأن الأفكار النبوية تلبس ما يلائمها من ألفاظ ، حقيقة كانت أم مجازا أم سجعا .

ولقد استولت فكرة الموسيقى على بعض المؤلفين في البلاغة النبوية ، فراحوا ينصبون الأدلة على تسلل الموسيقى الشعرية إلى العبارات الحديثية بتحوير فيها أو بدون تحوير ، يقول الدكتور عز الدين السيد في الحديث الشريف «تعوذوا بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء».

والجرس الهاتف منها يعلن عن ذاته حتى يمكن أن يحول إلى الشعر أكثر ما في الحديث «أعوذ بربي لجهد البلاء ، ودرك الشقاء وسوء القضاء آيبون تائبون عابدون ساجدون» .

إنها تحكى بيتا من الرمل المجزوء ويصلح لحنا شجيًّا يصور أفراح النفس بالعودة الظافرة بالفلاح[2].

ولو كان الأمر كذلك لهان الخطب وحولنا أو حورنا القرآن والسنة إلى شعر شاعر يتغنى بآلام الإنسانية وأفراحها لكن لا نقول بعد إنه قرآن أو سنة ، إن الحديث الشريف له طبيعته الفنية الخاصة طبيعة النثر الفني الذي يمثل أرقى ما وصل إليه بشر ، ولهذا النثر موسيقاه الخاصة المتسقة مع معانيه وتراكيبه

---

(١) الأسلوب ، الأستاذ أحمد الشايب : ص ١٩٩ .

(٢) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية دكتور عز الدين السيد : ص ٢٧٨

وتخالف موسيقى الشعر في الكم والإيقاع والانسجامات الصوتية[1] ونحمد الله أن رسوله ليس بشاعر بل كان لا يقيم وزن الشعر ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ ، ولن يتكلف على عادة الشعراء الذين هم في كل واد يهيمون ، بل هو الفطرة العربية في صورتها الكاملة ، ولقد اندثر كثير من الشعر وبقيت السُّنة كالشمس يراها الناس لا يستطيعون لها صعودًا ، على أن هذه المحاولة السابقة يمكن أن تطبق على كل كلام غث أو سمين ثم لا يسمى بعد ذلك شعرا ولا يكسبه نبلا فليس الشعر وزنا راقصا أو نغما شجيا ، وما نعالج السجع إلا بمقدار ما يعين على تجلية الانفعال والأعماق لأن اللفظ بجرسه صورة للمعنى بظلاله .

التجنيس

وهو تفعيل من التجانس وهو التماثل وإنما سمي هذا النوع جناسا لصلاحية اللفظ لمعنيين مختلفين ، واصطلاحا ، تشابه الكلمتين في اللفظ مع اختلاف المعنى[2]

وقد نبه البلاغيون إلى أنه من ألطف مجارى الكلام ، ومن محاسن مداخله إذا كان عماده الطبع المواتي الذي يقذف به سهوا رهواً في حالات الصفاء والتسامي[3]

وهو حلية لفظية عندهم إلا أن النقد المعاصر لا يفرق بين الشكل والمضمون طالما كان فكر المتكلم وشعوره وراء لسانه ، وقد سبق الإمام عبد القاهر إلى ذلك حينما أجمل بعد تفصيل فقال «وعلى الجملة فإنك

---

(١) راجع في الأدب والنقد دكتور محمد مندور ص ٢٥

(٢) انظر : الطراز ٣٥٦/٢ ، وعلوم البلاغة للمراغي ص ٣٦٦

(٣) انظر : فن الجناس ، الجندي ص ٣١

لا تجد تجنسيًا مقبولا ، ولا سجعًا حسنا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه ، وساق المتكلم نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلا ، ولا تجد عنه حولا ، ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ، فأوقع من غير قصد من المتكلم إلى اختلابه وتأهب لطلبه ، أو ما هو لحسن ملاءمته وإن كان مطلوبًا ـ وأنِ كانِ مطلوبا ـ بهذه المنزلة . وفي هذه الصورة وكذلك أحسن الإفادة مع أن الصورة صورة تكرير وإعادة[1]. وسر هذا الجمال في الجناس التعاطف الموسيقي في حروف الألفاظ المتجانسة بما يدخل في فنون المخاتلة والتحذير ، والاستدراج مع تقديم معنى طريف[2] ولاشك أن الجناس له هذا التأثير إذا جاء في الفينة بعد الفينة طبعا غير متكلف ، ونازلا على حكم المعنى ، وإلا أصبح لونا من الإسراف الذي تضيق به النفوس ، قال في سر الفصاحة : وهذا إنما يحسن في بعض المواضع إذا كان قليلا غير متكلف ، ولا مقصور في نفسه»[3].

وإذا كان ذلك التحفظ والتغيير في جناس الناس عامة فلن نلجأ إليه في جناس النبوة لأن البيان النبوي كله إنما هو فيض الطبع ونبض الحكمة ، وإذا كان التجنيس ـ أصلا ـ حلية لفظية فإنه في الحديث قام بدور هام في أداء المعنى ثم أفاض من جماله ما أمتع وأعجب ، لا جرم أن البلاغيين أكثروا من الاستشهاد به في تقسيماتهم وتفريعاتهم .

الجناس التام :

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : «من تعلم صرف الكلام ليسبي به قلوب الرجال أو الناس لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا» الصرف الأول فضل الكلام ، والثاني : النافلة والتوبة[4].

---

(١) انظر : أسرار البلاغة ص ١٤ ط رشيد رضا

(٢) انظر : فن الجناس ص ٢١

(٣) سر الفصاحة : ص ١٨٣

(٤) التاج ٥/٢٨٥

والحديث يتوعد من وهب بيانا أحلى من العسل وقلبه أمر من قلوب الذئاب ولن يدعهم الله لاسيما يوم القيامة إذ كل أعمالهم ستكون هباء ، ترفض توباتهم ، وتمحق نوافلهم ، وفرائضهم ؛ لأنهم مخاتلون ، وبراعة الجناس أنه أوهم أن اللفظ الثاني عين الأول ، فإذا ما دقق الفكر وجد معنى جديدا وفائدة شريفة مع أن الصورة صورة تكرير وإعادة ، كما أن في تكرار الإيقاع لكلمة واحدة ما يثير الانتباه ويربط آخر الكلام بأوله .وقد مثل ابن الأثير والعلوي بقوله ﷺ لما نازع الصحابة جرير بن عبيد الله في أخذ زمام ناقته ﷺ أيهم يقبضه فقال ﷺ « خلوا بين جرير والجرير »[1]

وتعجبني هذه اللفتة الذكية من الأستاذ علي الجندي في كتابه « فن الجناس » قال « ويقول السيوطي : لم أقف على هذا الحديث»[2] والجندي يثير قضية هامة هي وجوب البحث فيما أورده البلاغيون من حديث وتحديد صحته ودرجتها ، ونخله وزيف موضوعه ، ثقة بأن ما يقرأ ويدرس بلاغة النبي ﷺ مما تعرضنا له من نفي بعض أحاديث أوردها قدامى البلاغيين وهي غير صحيحة .

الجناس الناقص :

قال حكيم بن حزام أي رسول الله : أرأيت أمورا كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم أفيها أجر ؟ قال : « أسلمت على ما أسلفت من خير »[3] وعن النبي ﷺ « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم »[4] وقد جاء الجناس بين أسلمت وأسلفت ، والخيل والخير ، والحروف المختلفة متقاربة المخارج ، ولذا سمي مضارعا ، وقد

---

(١) انظر : المثل السائر ٣٤٣/١ ، والطراز ٢٥٧/٢

(٢) ٧٠

(٣) التاج الجامع ١٢٥/٤

(٤) المرجع السابق ٣٤٩/٤

اشتهر التمثيل بالحديث الثاني عند البلاغيين[1]، ومن الجناس المحرف الذي تباعدت فيه مخارج الحروف المختلفة فيها قوله ﷺ وقد سئل عن الحج فقال : «العج والثج» : والعج : رفع الصوت بالتلبية ، والثج : نحر الهدي[2]، وقال ﷺ : «إنما مثل المريض إذا برأ وصح كالبردة تقع من السماء في صفائها ولونها»[3]

والجناس بين العج والثج وبرأ والبردة ، وقد يطلق على هذا النوع جناس التصحيف ، أو الجناس اللاحق ، وقد أطلق العلوي المضارع على القسمين جميعًا[4]، ومن تجنيس التغاير باختلاف نوع الكلمة قوله ﷺ «عصية عصت الله ورسوله وغفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله»[5]

ومن الاشتقاق قوله عليه الصلاة والسلام «الظلم ظلمات يوم القيامة»[6] و«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هاجر ما نهى الله عنه»[7] ومن جناس القلب قوله ﷺ «اللهم استر عوراتنا»، وقوله ﷺ لصاحب القرآن «اقرأ وارتق تزاد بكل آية حسنة»[8] وهنا لون من التجنيس نبه إليه ابن الأثير وتبعه العلوي وهو عكس الألفاظ كقوله ﷺ : «جار الدار أحق بدار الجار»[9].

قال الدكتور عز الدين السيد (ومع أن الحديث يعطي مادة من قانون الفقه في الشفعة ، لا نجد أروع منه في الفن ليخلط الفقه بالجمال ، ويخلط العلم بالفن ، فيظل يعمل في النفس ويحوك في القلب بعيدا عن الجفاف ، فبين الجار

---

(١) انظر : الصناعتين ص ٣٢٢ ، والمثل السائر ٣٥/١ ، والطراز ٣٦٧/٢

(٢) التاج الجامع ١٢١/٢

(٣) المرجع السابق ١٩٠/٣

(٤) انظر : الطراز : ٣٥٦/٢-٣٦٧

(٥) تحرير التحبير ١٠٤/١

(٦) التاج الجامع ١٩/٥

(٧) المرجع السابق ٤١٧/٣

(٨) المرجع السابق ٥/٤

(٩) التاج ٢١٧/٢ ، انظر : المثل السائر ٣٥٧/١ ، والطراز ٣٧١/٢

والدار وهما وحدة في الزخرف وحسن الجناس ثم صنع بهذه الوحدة أن كررت منعكسة فكانت كالشجرة وظلها في الماء أو كجناحي الطائر »[1] ومنه قوله ﷺ في دعائه «اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمني ما ينفعني ، وزدني علما »[2]

والجملة الثانية تعكس ترتيب الجملة الأولى التي هي تضرع إلى الله تعالى أن ينفعه بما أعطاه من علم وتجربة في الماضي ، وهذا خاص بما قطعه المرء من عمر ، فأين المستقبل إذن وهو غيب والعلم بين ضار ونافع والنافع نفسه قد يتعلم ولا يوفق للعمل به، لابد إذن من اللجوء إلى الله حتى يعلمه ما ينفعه، ونلاحظ هذه المقابلة الزمنية بين معلوم مسبق وطلب معلوم في المستقبل ، وإن العكس هنا جاء نازلا على حكم المعنى لاستيعابه دلالة التفويض واحتكام الدعاء في هذا البيان الذي امتزج فيه الجمال اللفظي مع الجمال المعنوي مع الإيجاز الحكيم ، وإحاطة العلم محفوفا بالنفي المكرر إيماء إلى أن المهم ليس العلم وحده لذاته بل بما يترتب عليه من نفع خاص وعام .

وهكذا في كل عكس للألفاظ في البيان النبوي ، وقد ورد منه غير يسير تقسيم شامل وتبديل بارع ، فما هو إلا تغيير في وضع كلمات وترتيب لها من جديد ، فإذا بمعنى رشيق يعالج أخطر ما يهم الإنسان فيوفي على الغاية في تحقيق ما يريد .

شرط الحسن في المحسنات اللفظية :

وهو عدم التكلف وترك النفس على سجيتها ، فأصل كل حسن كما يقول عبد القاهر «أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني ، فإن المعاني إذا أرسلت على سجيتها وتركت وما تريد طلبت لنفسها الألفاظ ، ولم تكتس إلا ما يليق بها »[3].

---

(١) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية : ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(٢) التاج الجامع : ١/١٩٥

(٣) أسرار البلاغة : ص ١٤

ونحمد الله أن هذا القيد غير وارد عندنا في البيان الكريم ، ذلك أن البيان النبوي بألوانه البلاغية كان ولا يزال مثلا يقتدى وافقا سامقا لأنه اتخذ من الفن الأدبي متكئا فكانت دعوته يليها القدسي ونسجها الأدبي وصدقها الفني أبقى من الأيام وأضوأ من الشمس ولقي به ﷺ أبلغ من نطق وأفصح من أبان . .

والله المستعان ،

* * *